

## الفصل الثالث علاقة الخزر بغيرهم

بلغت هذه الإمبراطورية أوج عزها في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، أي فيما بين تهود الملك بولان والإصلاح الديني الذي قام به عبدييه. وثمة رمز حتى لسلطان الخزر يتمثل في الإمبراطور «ليو» الخزري الذي لقب بهذا اللقب نسبة إلى أمه الأميرة الخزرية «الزهرة» التي أحدثت في البلاط زياً جديداً .

على أن الزيجات والمصاهرات بين الأسر الحاكمة في خضم مؤتمرات ذلك العهد، ومحاولات إخفاء الأغراض التي تستهدفها الدول، كان من الممكن أن تنطوي على الخطر، ذلك أنها كثيراً ما كانت السبب في اشتعال نار الحروب. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك.

ولم نعد نسمع بعد بقتال يدور بين الخزر والعرب بعد نهاية القرن الثامن الميلادي، والظاهر أن الخزر قد أخذوا بدخول القرن التاسع ينعمون بفترات من السلام، واستقرت علاقاتهم بالخلافة استقراراً بمعاهدة تقوم على عدم الاعتداء، أما علاقاتهم ببوزنطة فمضت تقوم على الصداقة والود.

على أنه حدث فى منتصف هذه الحقبة المثلى من السلام أن  
أحس الخزر بنذر الخطر، فأوفد خاقانهم سنة ٨٢٣ بعثة إلى  
ثيوفيلوس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية يسأله أن يوفد  
إليه مهندسين وأرباب حرف مهرة ليقيموا له قلعة على المشارف  
الدنيا لنهر الدون، وهكذا قامت قلعة «سنزكل» على مصب هذا  
النهر فى ذلك الموقع الاستراتيجى الهام.

وكان العدو المحتمل الذى قامت من أجله هذه القلعة الرائعة هو  
أولئك القادمون الجدد على المسرح العالى. ونغنى بهم قراصنة  
الشمال الذين أطلق عليهم المشارقة اسم الروس.

وبعد موجة الفتوح العربية بقرنين أتى التاريخ بموجة أخرى  
شبيهة بذلك، فقد خرج قراصنة الشمال من أقصى الشمال من  
العالم، أى من إقليم اسكندناوة، وتقدموا جنوباً على متن البحر  
والمجارى المائية الأخرى. وكان العرب يحاربون حرباً مقدسة هى  
الجهاد فى سبيل الله، أما قراصنة الشمال فكانوا يحاربون حرباً  
دنيوية تقوم على القرصنة والسلب والنهب.

وحوالى الوقت الذى بنيت فيه قلعة «سنزكل». كان قراصنة  
الشمال فى الغرب قد ركبوا متن المجارى المائية الكبرى فى أوروبا  
وغزوا نصف أيرلندا، وفى العقود التالية من السنين استعمروا  
أيسلندا وغزوا نورمانديا، ونهبوا باريس مراراً وأغاروا على ألمانيا،

ودلتا الرون، وخليج جنوة، وجابوا شبه جزيرة أيريا، وهاجموا القسطنطينية مخترقين البحر المتوسط والدردييل، واقترن هذا بهجوم الروس على نهر الدنيبر الأدنى عابرين البحر الأسود.

ولا عجب إذن أن نجد القسطنطينية تحتاج إلى حلفائها الخزر لحمايتها من شر غارات قراصنة الشمال، كما احتاجت إليهم من قبل ذلك بعدة قرون لوقف تيار الفتوح الإسلامية الجائحة.

وصنف قراصنة الشمال يسميه البوزنطيون «الروس» ويسميه الإخباريون العرب «الورنك»، والاسم «الروس» مشتق في أغلب الظن من الكلمة السويدية «رودر» بمعنى الجذفين. أما «الورنك» فاسم استعمله العرب والتاريخ الروسى الإخبارى الأول للدلالة على قراصنة الشمال أو الإسكندناويين. وكان هؤلاء يغيرون في مواسم، وتعتمد هجماتهم على جزائر استراتيجية تتخذ معاقل ومخازن سلاح تزود القواعد التى يهاجمون منها البر الأسمى. وقد نشأت هذه الهجمات بطبيعة الحال من غارات السلب والنهب والتجارة المفروضة على مستوطنات يتفاوت حظها من الاستقرار، ثم يندمج الغزاة فى سكان الأراضى المفتوحة.

وقد كان قراصنة الشمال يتهجون هذا النهج فى غزو الطرف الشرقى من أوربا، فقد عمروا بحر البلطيق والخليج الفنلندى وأبحروا صعدا فى نهر فولخوف وولجوا بحيرة إيلمن (جنوبى لينينغراد

الحالية) حيث وجدوا جزيرة مواتية لأغراضهم هي هولجارد، وأقاموا عليها مستوطناً نما فأصبح من بعد نوفجوردو، ومنها مضوا في غارتهم جنوباً فهبطوا من الفولجا إلى بحر الخزر، ومن الدنيبر إلى البحر الأسود. وكان الطريق الأول يؤدي بهم إلى أراضي البلغار والخزر المناهضين لهم، ويؤدي بهم الثاني إلى أراضي القبائل الصقلبية المختلفة التي تسكن المشارف الشمالية الغربية لإمبراطورية الخزر وتؤدي لهذه الإمبراطورية الجزية.

\*\*\*

وكان الروس «الورنك» مزاجاً فريداً بين إخوانهم قراصنة الشمال، فقد اجتمعت فيهم خلائق القراصنة واللصوص والتجار من أهل الحنة الذين يتاجرون بشروطهم تحت تهديد السيوف والفتوس، فكانوا يقايضون الذهب بالفراء والسيوف والعنبر، على أن قوام تجارتهم كان هو العبيد.

وشاهد ذلك ما كتبه الجغرافي العربي ابن رسته إذ قال عن الروس: «وهم يغزون الصقالبة، يركبون السفن حتى يخرجوا إليهم ويسبوهم ويخرجوهم إلى خزران، يبيعونهم منهم. وليس لهم مزارع، إنما يأكلون ما يحتملونه من أرض الصقالية. وإذا ولد لرجل منهم مولود قدم إلى المولود سيفاً مسلواً فإلقاه بين يديه، وقال له: لا أورتك مالا، وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا».

وهكذا كانت قوافل الروس تبحر جنوباً في فصل الصيف متخذة صفتين، صفة الأساطيل التجارية، وصفة الأساطيل الحربية الضخمة، أجل... كان هؤلاء الروس يجمعون بين الصفتين حتى لا يصعب على المرء أن يتنبا متى ينقلب التجار محاربين. وكان حجم هذه الأساطيل هائلاً كما جاء في رواية السعودي. وقد عبر هؤلاء الروس في المراحل الأولى من مغامراتهم البحر الأسود واستولوا على القسطنطينية في أسطول يقدر بما بين ٢٠٠ سفينة، ومائتين وثلاثين سفينة.

وقد اضطر البوزنطيون والخزر إلى مطاولة هؤلاء الفاتحين ذوى الإقدام والبأس الذين اشتهروا بالعدو والخيانة، فكانوا بعد قرن ونصف القرن من بناء قلعة سركل يعقدون معهم معاهدات تجارية ويتبادلون معا السفارات وتنشأ بينهم وبين الروس حروب ضارية، وبمضى الزمن تأثر الروس رويداً رويداً بأخلاق الأمم المفتوحة وامتزجوا باهنتها واعتنقوا أخيراً عقيدة الكنيسة البوزنطية.

وقد تحير الإخباريون العرب في أمرهم حتى تناقضت أقوالهم، بل كان الإخباري منهم يناقض نفسه بنفسه، ونجد كاتبنا الأشير ابن فضلان يتقرز من قنارة الروس حين لقيهم على نهر الفولجا (اتل) في أرض البلغار فيقول: «وهم أقدر خلق الله.. ولا بد لهم في كل يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قحسعة كبيرة فيها ماء،

فتقدمها إلى مولها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها».

ويكتب ابن رسته حوالى ذلك الوقت فيقول في الروس: «ولهم نظافة في لباسهم»

ثم يستنكر ابن فضلان أشد الاستنكار وطء الروس جواربهم على اللأ وقضاء حاجتهم علنا بما في ذلك ملكهم، على حين لا يعرف ابن رسته ولا الكرديزي شيئا عن مثل هذه العادات الرذولة. ومع ذلك فإن أقوالهم تتسم كذلك بالغموض والتناقض، فابن رسته يقول: «ويكرمون أضيافهم ويحسنون إلى من يلوذ بهم، ولم يسوغوا أحدا منهم اهتضامهم ولا الجور عليهم، وكل من أقدم عليه بمكروه أو ظلم أعانوههم ودفعوا عنهم».

ولكنه بعد عدة فقرات يرسم لهم صورة مختلفة عن ذلك كل الاختلاف فيقول: «ولا يبرز أحدهم لقضاء حاجته وحده، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه يتحارسونه بينهم، ومع كل واحد

منهم سيف لقلّة أمانتهم والغدر الذى فيهم، فإن الرجل إذا كان له قليل مال طمع فيه أخوه وصاحبه الذى معه أن يقتله ويسلبه».

\*\*\*

كانت هذه هى الظروف التى واجهت الخزر، وكانت سر كل قد شيدت فى أوانها، فممكنهم من مراقبة حركات سفائن الروس على طول المشارف الدنيا لنهر الدون ومدخله إلى الفولجا أى ما يعرف بالطريق الخزرى.

وكانت غارات الروس للنهب والسلب موجهة فى معظمها إلى بوزنطة فى القرن الأول لظهورهم، وذلك فى الوقت الذى كانت تقوم علاقاتهم بالخزر على التجارة ولو أن هذا لم يكن يخلو من الاحتكاكات بين الحين والحين. ومهما يكن من شىء فإن الخزر استطاعوا الهيمنة على طرق الروس التجارية وجباية نسبة العشرة فى المائة مكوساً<sup>(١)</sup> على شحناتهم فى عبورهم أرض الخزر إلى بوزنطة والبلاد الإسلامية. وقد أثروا أيضاً بعد الأثر الثقافى فى قرصنة الشمال الذين أبدوا- برغم أساليبهم العنيفة- رغبة صادقة فى التعلّم من الشعوب التى قدر لهم أن يحتكوا بها. وشاهد ذلك اتخاذ الروس لقب الخاقان من الخزر واتخاذهم عاهلين يتولى أمرهم وهو أمر كان غريباً على الشعب الجرمانى فى الشمال.

---

(١) الكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق - القاموس المحيط -

ومن المؤسف أن نظام الحكم السوفيتي قد جاء بعد ألف سنة من الوقائع التي ذكرناها، فسعى إلى طمس هذه الحقائق وإنكار أثر الخزر الثقافي في الروس وما بلغوه في هذا الميدان من شأن. والعجيب أنهم حملوا الاستاذ أرتامونوف مؤرخهم المشهور على تغيير رأيه في وجود هذا الأثر إذا نقدته صحيفة «برافدا» فقير رأيه الذي أبداه في كتابه الصادر سنة ١٩٢٧ وأنكره في كتابه الصادر عن تاريخ الخزر سنة ١٩٦٢ وقال: إن الروس لم يأخذوا شيئاً عن الخزر.

وقد أكمل الحزب السوفيتي هذا الطمس فأغرق أطلال قلعة سركل. وهذه العلاقات التجارية والثقافية الوثيقة المتبادلة بين الروس والخزر لم تمنع الروس من طي الطريق رويداً رويداً بينهم وبين الإمبراطورية الخزرية باحتواء رعايا هذه الإمبراطورية من الصقالبة الأقبال الذين كانوا يحكمون هؤلاء الرعايا التابعين لها.

ونستدل من التاريخ الإخباري الروسي الأول على أن المدينة العامة «كييف» القائمة على الدنيبر والتي كانت خاضعة لـ «نوفجورود» أصبحت قصبة الورك و«ام المدائن الروسية»، على حين أصبحت الإدارة التي سمت باسمها مهد الدولة الروسية.

ورسالة الملك يوسف التي كتبت بعد احتلال الروس كيف بقرن تقريباً لم تعد تذكر هذه المدينة بين أملاك الخزر. على أن جماعات خزرية يهودية ذات نفوذ ظلت باقية في مدينة كيف

واقليم كييف، فلما دمرت بلاد الخزر تدميراً قضى عليها قضاء  
ميرما اشتد أزر هذه الجماعات بأعداد كبيرة من الخزر المهاجرين،  
وباب التاريخ الإخبارى الروسى على الإشارة إلى الأبطال القادمين من  
بلاد الخزر، وقد حفظ «باب الخزر» فى كييف ذكرى حكام  
الخزر السابقين حية حتى العصور الحديثة.



ثم ندخل فى النصف الثانى من القرن التاسع، وقبل أن نستمر  
فى قصة التوسع الروسى يهمننا أن نلتفت إلى بعض التطورات الفعالة  
التي طرأت على شعب الفياقى، وخاصة المجر، وهذه الحوادث جرت  
موازية لقيام سلطان الروس ولها أثر مباشر على الخزر وخريطة  
أوربا.

كان المجر خلفاء الخزر وأتباعهم عن رغبة منذ فجر  
الإمبراطورية الخزرية. أما مشكلة أصلهم فقد ظلت أمداً طويلاً تحير  
العلماء، بل لقد كانت هذه المشكلة من أغمض ألغاز التاريخ. والذى  
نعلمه علم اليقين عن هذا الأصل هو أن المجر كانوا يرتبطون  
بالفنيين بصلة القرابة، وتنتمى لغتهم إلى أسرة اللغات الفنية  
الأوكرية. ومن ثم فإنهم كانوا لا يرتبطون فى الأصل بالأمم  
الصقلبية والتركية فى الفياقى، وكانوا قد خرجوا من بين هذه  
الأمم وهذه عجيبه سلالية من العجائب. وهنغاريا ليس لها،

كغيرها من الأمم الصغيرة الأخرى، صلات لغوية بجيرانها. فقد ظلت أمة ذات عرق قائم بذاته فى أوربا، لا ترتبط إلا بأبناء عمومها الأبعدين وهم الفنيون.

وفى وقت غير معلوم من القرون الأولى للتاريخ الميلادى طردت هذه القبيلة البدوية من منازلها السابقة فى الأورال، وهاجرت جنوباً مخترقة الفيافى واستقرت آخر الأمر فى الإقليم الممتد بين نهري الدون وقوبان، وأصبحت من ثم جارة للخزر حتى قيل أن يعلو شأن هؤلاء. وكان المجر مدة من الزمن داخلين فى حلف القبائل شبه البدوية المعروف باسم الأونغور (أى السهام العشرة أو القبائل العشر)، والمظنون أن الاسم «الهنغارى» رواية صقلبية للأونغور، على حين أن المجر هو الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم منذ عهد سحيق.

وظل المجر منذ منتصف القرن السابع تقريباً إلى آخر القرن التاسع خاضعين لإمبراطورية الخزر، ومن العجيب أننا لا نجد سناً واحداً يقول بقيام نزاع مسلح واحد بين الخزر والمجر، على حين أن القبائل الأخرى قد اشتبكت طوال هذه الحقبة فى حروب دموية. وكان المجر يجوبون الجزية لحساب الخزر من الصقالبة والفنيين فى منطقة الأرض السوداء إلى الشمال من أملاكهم هم فى الفيافى، ومنطقة الغابات إلى الشمال من ذلك. وهكذا كان المجر يسيطرون على جيرانهم الصقالبة، ويستغلون حياتهم للجزية لحساب الخزر.

وقد غير وصول الروس هذه الحالة التي نعم بها المجر تغييراً جوهرياً، فقد حدثت في الوقت الذي أقيمت فيه سركل تقريباً حركة كبيرة بين المجر، إذ عبروا نهر الدون إلى ضفته الغربية، ومنذ سنة ٨٢٠م أو حول ذلك، عاد الفريق الأكبر من الأمة المجرية إلى الاستقرار في الإقليم القائم بين الدون والدنيبر الذي سمي من بعد «لبديا». وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول هذه النقلة، وخير تعليل لها ما قال به توينبى من أن المجر كانوا ينزلون الفيافي التي إلى الغرب من الدون بإذن سادتهم الخزر، وكانت هذه الفيافي من قبل تابعة للخزر وكان المجر حلفاءهم، ونخرج من ذلك بأن الخزر أقاموهم في هذه المنازل خدمة لأغراضهم الاستراتيجية، فهم وهم مستقرون فيها يعاونونهم على صد تقدم الروس من الجنوب الشرقي ومن الجنوب.

واستمر هذا التدبير يفعل فعله بنجاح نصف قرن تقريباً، بل إن العلاقات بين المجر والخزر خلال هذه الحقبة أصبحت أكثر وثوقاً وانتهت بحادثين كان لهما أثر على الأمة المجرية لا ينقضى ولا يزول. الأول أن الخزر منحوهم ملكاً أسس أول أسرة حاكمة مجرية. والثاني أن عدة قبائل خزرية انضمت إلى المجر وغيرت تغييراً جوهرياً طبيعتهم السلالية.

وثمة حادث آخر يظهر أنه كان له أثر أعمق من هذا في الصفة القومية للمجر، ذلك أن المؤلف القديم قسطنطين يروى لنا أنه حدث

فى تاريخ لم يسمه عصيان من فريق من الأمة الخزرية انتقضوا على حكاهم. وكان المنتقضون ثلاث قبائل هم القور أو القبر من سلالة الخزر. وسيطرت الحكومة على المنتقضين فقتل بعض العصاة وفر بعضهم من البلاد واستقروا مع المجر وتصادقوا معاً، وعلموهم أيضاً اللسان الخزرى، ولا يزالون حتى اليوم يتحدثون بهذا اللسان المعهود كما يتحدثون باللسان المجرى. وهكذا تأثر المجر بالخزر وظل اللسانان - الخزرى والمجرى - حتى منتصف القرن العاشر الميلادى يتحدث بهما فى هنغاريا.

وقد اتخذ المجر، مثلهم مثل الروس، صورة معدلة من نظام الحكم الخزرى الذى يتولى فيه عاهلان شئون الدولة. ومن ثم يقول الكرديزى «يركب ولى الأمر عندهم فى موكب من ٢٠,٠٠٠ فارس، وهم يسمونه كندة بفتح الكاف (بكسرهما فى الهنغارية) وهذا هو لقب ملكهم الأكبر، ولكن لقب الشخص الذى يحكمهم بالفعل هو يولا، والمجر ياتمرون بأمر يولا هذا»، وثمة ما يدعو إلى الظن بأن أول من حكم المجر من هؤلاء اليولات كانوا هم القبر.

وهناك أيضاً بعض الشواهد على أنه كان من بين قبائل القبر العصاة الذين تزعموا القبائل المجرية بالفعل يهود أو أتباع «دين متهود»

وانتهى التعاون الوثيق بين الخزر والمجر حين ودع المجر سنة ٨٩٦م  
الفيافي الأوروبية الآسيوية وعبروا سلسلة جبال الكربات، وغزوا  
الإقليم الذى أصبح من بعد مقامهم الأخير، وتختلف الآراء أيضا فى  
ظروف هذه الهجرة.

فى العقود الأخيرة من القرن التاسع الميلادى دخل مسرح  
الحوادث البشناق، وهم من البدو الغلاظ الجفاة، وقد لخص  
قسطنطين المعلومات القصيرة التى تبسرت لنا عن هذه القبيلة  
التركية فقال: إن أفرادها همج لا يشبع لهم طمع ولا نهى، ويمكن  
شراؤهم لقتال غيرهم من الهمج والروس. وكانوا يعيشون بين  
نهري الفولجا والأورال تحت سيادة الخزر. وكان الخزر فى قول ابن  
رسته، يغيرون عليهم كل عام لجباية الجزية منهم.

وحوالى نهاية القرن التاسع الميلادى نزلت بهم نازلة، فقد  
أخرجهم من منازلهم حيرانهم من الشرق وهم الغرّ (أو الأوغوز)  
الذين كان يكرهم ابن فضلان أشد الكره، وكانوا من القبائل  
التركية التى يخطئها الحصر، ينطلقون من ديارهم فى أواسط آسيا  
وينساقون غربا. وقد حاول البشناق المطرودون أن يستقروا فى بلاد  
الخزر، ولكن الخزر دحروهم وأخرجوهم، وواصل البشناق طريقهم  
متجهين إلى الغرب وعبروا الدون واحتلوا أرض المجر، واضطر المجر  
بدورهم إلى الارتداد غربا إلى الإقليم القائم بين نهري الدنيبر  
وسرث. والظاهر أنهم استقروا فيه سنة ٨٨٩م ولكن البشناق عادوا

سنة ٨٩٦م إلى الاندفاع مرة أخرى متحالفين مع بلغار الدانوب، ثم انسحب المجر إلى هنغاريا الحالية.

هذا هو تلخيص لقصة خروج المجر من الفياض الشرقية، ونهاية الصلة بينهم وبين الخزر، وتختلف الآراء فى تفصيل ذلك ولكن كيف يوفق المرء بين تلك الأفعال التى تدل على الإقدام والشجاعة وبين سلسلة الانسحابات من الدون إلى هنغاريا التى وقعت فى هذه المدة نفسها؟ يبدو أن قسطنطين قد أسعفنا بالجواب فى الفقرة التالية لما ذكرنا، فقال إنه لما عاد سيميون البلغارى إلى مسالة إمبراطور الروم وأمن بلاده بعث إلى الياتزيناق وعقد معهم اتفاقا لشن الحرب على المجر وإفنائهم. فلما خرج المجر فى غزوة لهم هجم الياتزيناق وسيميون على المجر وأفنوا أسرهم وطاردوا فى غير رحمة المجر الذين بقوا لحراسة بلادهم. ولكن المجر عادوا من غزوتهم ووجدوا بلادهم موحشة خربة فانتقلوا إلى البلاد التى يسكنونها اليوم (أى هنغاريا).

وثمة اعتبار آخر يؤيد هذا القول، وهو أن المجر فيما يبدو لم يتعلموا سنة الإغارة على غيرهم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع بعد أن تأثروا فى ذلك بالخزر. كما أن القبر قد علموا المجر تلك الحركات الحربية الخاصة التى استخدمتها كل أمة تركية منذ عهد سحيق مثل الهون والأوار والترك والبشناق والقومان ومن إليهم. وقد أثبتت هذه الأساليب كفاية فى القتل والذبح فى

القرنين التاسع والعاشر الميلاديين حين فتح المغيرون الهنغاريون ألمانيا والبلقان وإيطاليا بل فرنسا. ولكنها لم تفعل مثل هذا الفعل مع البشناق الذين كانوا يلجئون إلى مثل هذه الحركات الحربية.

وهكذا كان للخزر، بهذا النطق التاريخي العوج، شأن غير مباشر في إقامة الدولة الهنغارية، في حين اختفى الخزر أنفسهم في ثنايا هذا الضباب.

وبالرغم من ذلك حاول الهنغاريون أن يحتفظوا بهويتهم السلالية، فقد أوهنت أعباء السنوات الستين التي قضتها القبور في حرب لا هوادة فيها ولا ضمير من صفوفهم، أما المجر الأقحاح فكانوا يعيشون في سلام نسبي ويزداد عددهم. كما أنهم نجحوا، بعد العهد الذي كانوا يتكلمون فيه بلسانين، في الاحتفاظ بلغتهم الفنية الأصلية في خضم جيرانهم الألمان والصقالبة، على العكس من بلغار الدانوب الذي أضاعوا لغتهم التركيبية الأصلية وهم يتكلمون الآن لهجة صقلبية.

ومع ذلك فقد استمر الأثر القبري في هنغاريا، بل نحن نجد الخزر والمجر بعد أن فصلت بينهما جبال الكربات، قد ظلّا على صلة لم تنقطع.

وقد عمد المجر في أثناء استيلائهم على وطنهم الجديد الدائم، إلى طرد ساكنيه السابقين وهم المورافيون وبلغار الدانوب الذين

انتقلوا إلى الأقاليم التي لا يزالون يعيشون فيها، وهكذا أخذت خريطة وسط أوروبا الحديثة تستقر.

ونستأنف الآن قصة صعود الروس إلى مقاليد السلطة، ونعنى بذلك ضم كييف إلى دولتهم على يد رجال روريك حوالي سنة ٨٦٢م وهذا هو أيضًا التاريخ التقريبي الذي طرد فيه المجر غربًا على يد البشناق، ومن ثم حرم الخزر حماية جناحهم الغربي، وقد يفسر ذلك استطاعة الروس الهيمنة على كييف في سهولة ويسر.

على أن ضعف قوة الخزر الحربية عرض البوزنطيين أيضًا لهجمات الروس، إذ كانت سفن الروس قرابة هذا التاريخ تبحر هابطة الدنيير وتعبّر البحر الأسود ثم تهاجم القسطنطينية. وقد وصف المؤرخ المشهور بيوري هذه الهجمات التي وقعت وكيف أنقذ البطريق فوتيوس المدينة الخالدة بفصاحته واستنهاض همم سكانها.. ونضيف إلى هذا أن هذا البطرك العالم كان يحمل وجهًا خزرياً وقد بعث من قبل القديس سيريل في بعثته الكنسية. صحيح أن تفهقر الروس عن القسطنطينية قد حدث بسبب رجوع جيش الروم وأسطولهم إلى البلاد، إلا أن فوتيوس قد قوى من الروح المعنوية للسكان في فترة الانتظار المريرة التي سبقت هذا الرجوع.

وهذا يبين لنا مبلغ قوة العدو الذى قرر الخزر أن يواجهوه، ويطلعنا على شأن الخزر وقيمتهم فى ذلك الوقت فحسب، ولسوف يضحى بهم فى أول فرصة شريفة أو غير شريفة تلوح فى الأفق.



وكانت العلاقات بين الروم والروس فى المائتى سنة التالية تتراوح بين النزاع المسلح ومعاهدات صداقة تعقد، ونحن لا نعرف إلا القليل عن أحكام هذه المعاهدات التى يتفاوت نصيبها من السرية، وكل ما نعرفه أنها كانت معاهدات تنطوى على تعقيد يحيرنا ويدعونا إلى البلبلة. ويقول البطرك فوتيوس إنه حدث بعد حصار القسطنطينية بسنوات قلائل أن أرسل الروس سفراء إلى هذه المدينة طالبين من الإمبراطور أن يعمدهم على عقيدة المسيحيين، ولكن يظهر أن الدافع إلى بعث هؤلاء السفراء كان أمراً آخر، ومع ذلك فقد تنصر عدد قليل من الروس.

وكان من بين النتائج المتحصلة من ذلك تجنيد بحارة من الإسكندناويين فى أسطول البوزنطيين، وما وافى عام ٩٠٢ م حتى بلغ عددهم سبعمائة مجند. ومن التطورات التى حدثت تكوين «الحرس الورنكى» المشهور، وهو كتيبة من الروس المختارين وغيرهم من المرتزقة من أهل الشمال ومن بينهم إنكليز. وفى تلك الأيام، أى فى منتصف القرن العاشر الميلادى، كان من المشاهد

المالوفة رؤية الأساطيل الروسية، ولم تكن هذه الأساطيل قادمة  
لحصار القسطنطينية، وإنما جاءت لبيع بضاعتها.

وبعد حوالي نصف قرن لاحت تباشير انتصار الكنيسة المقدسة،  
ففى سنة ٩٥٧م عمدت أولجا أميرة كييف وأرملة الأمير إيجور  
بمناسبة زيارتها الرسمية للقسطنطينية. وقد وصفت الأخبار  
بالتفصيل المآذب والحفلات الفخمة التى أقيمت للأميرة بهذه المناسبة  
وأثر ذلك فى نفسها ومدلولات تصرفاتها وتصرفات الإمبراطور  
قسطنطين وما أغدق عليها من هدايا وآيات التشريف ووعودها له،  
ثم عرضه عليها الزواج وكيف تخلصت من ذلك بلباقة قائلة له:  
كيف تعرض على الزواج وقد ناديتنى بابنتى وأنت تعمدنى.

ولاشك أن أولجا كانت امرأة إسكندنافية مسترجلة مقاتلة  
عاتية، وأرملة للأمير إيجور بن روريك فيما يقال، وقد وصفه التاريخ  
الإخبارى الروسى بأنه كان جشعا أحرق يستعذب أن ينزل بالناس  
العذاب والنكال. وقد هاجم الروم بأسطول عظيم وأعمل فيهم  
القتل والنبيح وأذاقهم العذاب ألوانا وأشكالا. ثم هزمه الروم بأن صبوا  
على أسطوله النار الإغريقية.

وانتهت حياة هذا الأمير الظالم بالقتل على يد الدروليان، وهم  
قوم من الصقالبة كان قد فرض عليهم ضريبة باهظة أنقلت  
كاهلهم، وخلفته أرملة أولجا، فسارت على منواله وانتقمت من

هؤلاء القوم انتقامًا فظيماً. ولما تنصرت أولجا هدأت سورتها وأصبحت رائدة المسيحية الروسية ودرة ساطعة بين الكفار .

ولم يكن حادث تنصر أولجا وزيارتها الرسمية للإمبراطور قسطنطين هو فصل الخطاب في الصلات العاصفة بين الكنيسة الرومية والروس، ذلك أن ابن أولجا سيفاتوسلاف عاد إلى الوثنية. ولم يستمع إلى توسلات أمه، وانبرى في خفة الفهد يشن الحملات ومنها حملة على الخزر، وحملة على البوزنطيين. وإنما حدث في عهد ابنه سانت فلاديمير أن اعتنقت الأسرة المالكة الروسية عقيدة الكنيسة الرومية الأرثوذكسية، وحوالى هذا الوقت نفسه انضم الهنغاريون والبولنديون والإسكندنافيون إلى الكنيسة اللاتينية فى رومة، وهكذا أختت معالم الفرقتين الدينيتين اللتين انقسم إليهما العالم تتضح، وأخذ اعتناق الخزر اليهودية يصبح من المفارقات. أما التقارب النامى بين القسطنطينية وبين كييف فقد أخذ يقلل شيئاً فشيئاً من أهمية إتل بالرغم مما مر به من تقلبات. ثم إن وجود الخزر معترضين طرق التجارة بين الروس والبوزنطيين وجبايتهم مكوساً قدرها عشرة فى المائة على ذلك الفيض المتزايد من البضائع أصبح أمراً مزعجاً يضر بخزانة البوزنطيين وبالتجار الروس المحاربين.

ومن الأمور ذات الدلالة على تغير موقف البوزنطيين من الخزر حلفائهم السابقين تسليم خيرسون للروس. ذلك أن البوزنطيين

والخزر ظلوا من قبل عدة قرون يناوشون حيثاً ويقاتلون أحياناً فى سبيل الاستيلاء على هذا الثغر الهام من ثغور القرم. فلما استولى عليه فلاديمير سنة ٩٨٧ م لم يحرك البوزنطيون ساكننا بل لم يحتجوا أى احتجاج ، ذلك أن التضحية به كما قال المؤرخ المشهور بيورى لم تكن بالثمن الغالى يشترى به السلام الدائم والصداقه الموصولة مع الدولة الروسية التى كانت فى سبيلها إلى أن تصبح دولة عظيمة.

وقد نجد مبرراً للتضحية بخيرسون، ولكن التضحية بالتحالف مع الخزر ثبت بمرور الزمن أنها سياسة قصيرة النظر.